١١ الفيلم التسجيلى والحكومة

بقلم : ريتشارد د . ماككان

من الصعب تعريف الفيلم التسجيلى مثل معظم الأشياء الثمينة ، ولكن الفيلم غير الروائى أمره أسهل ، ذلك أننا نستطيع أن نقول إنه يتحدث عن شخص أو مكان أو حادث ، الذى لا يعتمد على خط قصصى ، على أن تقليد الفيلم التسجيلى قد حدا بنا إلى أن نتوقع شيئًا أكثر تخصصًا من الناحية الإعلامية المباشرة .. شيئًا فريدًا ورائعًا وحقيقيًا مرتباً ترتيباً فنيًا . وقد وصف جون جرير سون ، زعيم حركة الأفلام التسجيلية البريطانية فى الثلاثينيات بأنها « المعالجة الخلاقة للواقع » . لقد أصبح التسجيل يعنى فيلمًا عن ظروف الحياة الإنسانية ومشاكلها ، وهو يجمع بين العلم والفن مع التركيز على الإنسان . وهو يخاطب القلب والعقل ، ولأنه قد يعالج مشاكل بدون حل ، فإنه غالباً ما يكون موضع جدل .

والفيلم التسجيلى فى أحسن وصف له هو تعبير عن الإيمان بقدرة الإنسان على أن يفهم نفسه ويعمل على تحسين أحواله . ولقد كانت غالبية الأفلام التسجيلية الأمريكية تنطوى على نقد للنظام القائم . حتى روبرت فلاهرتى الذى لم يكن ثوريا ، أنتج فيلمًا فيه تساؤل كبير ، وهو فيلم « الأرض » . وعلى هذا النمط اتخذ الإنتاج مساره من لويس

دى روشيمونت ، منتج مسرحية « زحف الزمان » إلى جميع قائمة المنتجين التليفزيونيين – إدوارد د . مارووفرد فريندلى وبيرتون بنجامين وإيرفنج جيتلين – حيث كان التفكير الكبير لا يقوم على أساس المدح الذاتى وإنما على أساس الاستجواب الذاتى ، وهذا التقليد شعاره « إننا لم نصل إلى مثلنا وأنه يجب أن تكون ثمة طريقة أفضل » .

وإذا نظر المرء إلى التاريخ الأمريكى ، فإنه سيكون من الصعب أن يجد وقتًا حينما كان بعضنا يفحص أهدافنا وينتقد تقدمنا . ونظرًا لأن الفيلم التسجيلى يعتبر منذ سنوات كثيرة نشاطاً مميزاً لمنتجى الأفلام الأمريكيين ، فإننى لا أرى غضاضة فى التفكير فى أن الفيلم التسجيلى يمثل عاطفة أمريكية خالصة للفحص الذاتى والتحسين الذاتى .

وثمة علامتان مميزتان فى صناعة الأفلام التسجيلية المبكرة ، تتمثلان فى فيلم « المحراث والمفلس والسهول » ، وفيلم « النهر » . إن الشىء المدهش حول هذين الفيلمين هو أنهما من إنتاج وكالة حكومية تحت إدارة « الصفقة الجديدة » للرئيس فرنكلين د . روزفلت » .

ولقد أثار فيلم « المحراث .. » فى عام ١٩٣٦ وفيلم النهر فى عام ١٩٣٧ ضمير الأمريكيين بلفت الأنظار إلى سوء استخدام الأرض فى الوسط الغربى . وكان هذان الفيلمان فى الواقع إشارات تحذيرية لمشكلة القيود البيئية التى تتصارع معها بإلحاح اليوم .

إن الذى أخرج هذين الفيلمين شاب يدعى بير لورنتز .. لقد كان لورنتز ناقدًا سينمائيًا فى نيويورك وعضواً فى هيئة تحرير مجلة إخبارية ومواطنًا من المنطقة الجبلية الشرقية فى ويست فرجينيا . ولقد عرف لورنتز من تجربته التى عاشها فى بلدته مدى الخراب والدمار الذى تحدثه مياه الفيضانات من الأنهار فى الربيع . وقام برحلة إلى

الغرب لكى يرى شيئًا آخر – وهو كيف يجرى اكتساح سطح التربة تحت تأثير الرياح العاتية وتتحول إلى عواصف رملية . لقد كانت هذه العواصف الترابية فى عامى ١٩٣٥ و ١٩٣٦ بمثابة صدمة للأمة . وكنت أنا صبيًّا فى كنساس فى هذين العامين ومازلت أتذكر تلك الأيام وكيف كان الهواء يكاد يصيبنا بالاختناق ولم نكن نتبين الأشياء فى الشوارع لتعذر الرؤية . ولقد بدا واضحًا لكل شخص درس هذه المسألة أن هذا الغبار جاء من الأراضى الحدية (أى التى يساوى إنتاجها ما ينفق عليها) التى كثيرًا ما زرعت وحرثت . وحينما هبطت أسعار القمح بعد الحرب العالمية الأولى وبدا أن الأمطار لن تهطل على الإطلاق ، أفلس كثير من المزارعين أو انتقلوا إلى الساحل الغربى . وبدأت التربة السطحية فى الوسط الغربى التى تلفحها الشمس وتعبث بها الرياح فى التفتت والتحول إلى غبار .

كانت ثمة وكالة فى واشنطن تحاول معالجة هذه المشكلة وإسداء المعونة لبعض المزارعين لإغرائهم بالبقاء والبعض الآخر بالرحيل . وكانت هذه الوكالة تسمى بإدارة إعادة التوطين ، ثم سميت فيما بعد بإدارة الأمن الزراعى . كان لورنتز يعرف بعض الرجال فى هذه الوكالة واستمر فى التحدث إليهم عن إعداد فيلم ، وأخيرًا اتفقت معه هذه الوكالة على أن يكتب الموضوع ويخرج الفيلم . وتحول فيلم « المحراث الذى حطم السهول » إلى إدانة للأخطاء الأمريكية السابقة ودعوة إلى العمل لإنقاذ السهول الغربية . لقد كان التصوير مدمرًا والتعليق حادا ومثيرًا للقلق ، وأحيت الموسيقى التصويرية من إعداد فيرجيل طومسون من جديد أغانى الماضى الشعبية .. لقد كانت الموسيقى بمثابة شعر مأساوى على فيلم . ومن الصور النهائية للمزارعين المعدمين الذين أنهكهم الفقر مزارعون يقودون سياراتهم القديمة إلى معسكر حكومى استعدادًا للهجرة إلى كاليفورنيا – وهذه الصورة أعاد إخراجها بعد ثلاث سنوات الفيلم المقتبس من رواية « عناقيد الغضب » لجون شتاينبيك والذى أخرجه جون فورد .

ثم تحول بير لورنتز إلى دراما نهر المسيسبى ، حيث كان ثمة دليل ظاهر للعيان على إهمال الرجال الذين استوطنوا أرضا عذراء ولم يعدوا خططًا للمستقبل . فالغابات المقطوعة أشجارها لم تكن تستطيع أن تحمى التربة وكانت ملايين الأطنان من الطمى التى كان يحيلها النهر تضيع هباءً وكان النهر كل بضع سنوات يفيض على ضفتيه . وكان أول ما عمله لورنتز فى الفيلم الذى أخرجه عن المسيسبى أن عرض الجمال الباهر للثلج أثناء ذوبانه والجداول والبحيرات الصغيرة والأنهار الضخمة . وكان تعليقه على هذا المشهد يتسم بطريقة شعرية وكانت تصاحبه موسيقى تلائم المرئيات تمامًا . قال :

من أقاصى الغرب عند أيداهو
نزولاً من قمم المرتفعات الثلجية
ومن أقاصى الشرق عند نيويورك ،
فنزولاً من مرتفعات الليغانى ،
ونزولا من مينوسيتا على بعد ٢٥٠٠ ميل
ينساب نهر المسيسيبى إلى الخليج
حاملاً كل نقطة ماء تمر فى ثلثى القارة .
حاملاً كل الجداول والغدران والأنهار الصغيرة ،
حاملاً جميع الأنهار التى تنساب مياهها فى ثلثى القارة
يجرى المسيسبى إلى خليج المكسيك

ولكن نظرًا لأن الرجال كانوا يحرثون فقط لزراعة القطن ويقطعون الأشجار ولم يكونوا يضعون خططًا للنتائج الزراعية (وأعود فأستعير من كلام الفيلم) :

عام يأتى وعام يروح والمياه تنساب
من ألف سفح من سفوح التلال
لتغسل الوادى .

ولقد فاز فيلم « النهر » بجائزة أحسن فيلم تسجيلى فى مهرجان الأفلام الذى أقيم فى مدينة البندقية فى عام ١٩٣٨ . واستخدم الفيلم فى الفصول المدرسية لتدريس منهجى التاريخ والأفلام ، ولكنه لم ينتج عنه تشكيل هيئة وادى المسيسيبى فوراً ، على غرار هيئة وادى تنيس المشهورة عالميًا ، التى تتولى التحكم فى مياه الفيضانات وتوليد الكهرباء فى أحد فروع المسيسيبى الهامة ، ولكن كان لهذا الفيلم أثره . فعلى مر السنين أقيمت السدود والخزانات بأعداد متزايدة عبر الغرب الأوسط ، وأصبحت مياه الفيضانات نادرة جدًا حتى أننا نستطيع القول بأننا لم نعد نسمع عن الفيضانات ، ولقد ساعد ذلك مع زرع البساتين وأشجار الفاكهة ووضع نظم أفضل لحماية التربة .. على التخلص من العواصف الترابية أيضاً .

ويمثل فيلم « النهر » و « المحراث الذى حطم السهول » ، سابقتين تاريخيتين رئيستين لمعظم ما حدث فى الحكومة الأمريكية بالنسبة لإنتاج الأفلام التسجيلية . وهما إلى جانب ذلك يعتبران مثلين رائعين للتقليد الأمريكى الخاص بالنقد الذاتى . وفى الوقت نفسه يجب أن نقول إن هذين الفيلمين واجها معارضة سياسية شديدة . لم يكن كل واحد فى الولايات المتحدة يريد أن يسمع عن وجود هذه المشاكل التى لم يتم حلها . وكان فيلم « المحراث » بصفة خاصة مزعجًا لأن بعض مرشحى الحزب الديموقراطى لعضوية الكونجرس استخدموه فى حملاتهم الانتخابية من أجل الوصول إلى الحكم فى عام ١٩٣٦ – ومع أن خصومهم من الحزب الجمهورى لم يكونوا متسامحين إزاء العواصف الترابية ، إلا أنهم ادعوا أن الفيلم الذى أعدته الحكومة تحت إدارة الحزب

الديموقراطى ، قد استخدم كدعاية لدعم الوكالات الحكومية التى أنشأها روزفلت والإبقاء على الديموقراطيين فى الحكم فى الانتخابات .

إن عام ١٩٣٦ انطوى بعيدًا فى سجل التاريخ ولكن مازالت هناك فى التقييد السياسى الأمريكى مقاومة لإعداد أفلام دعائية من جانب وكالات حكومية لجماهير المشاهدين المحليين .

فمنذ عام ١٩٠٨ مثلاً ، دأبت وزارة الزراعة على إنتاج أفلام عن الممارسات الزراعية الأفضل . ويتسم بعضها بالدعاية أو الإقناع ، ولكنها مبنية على طرق علمية . وهكذا ، فإنه حينما يقول الخبراء الزراعيون إنه يجب تطهير الخراف بغسلها فى محلول خاص لقتل الجراثيم والميكروبات وأن ينبغى تطعيم الماشية ، فإنه لا يمكن أن يكون هناك مجال للشكوى من أى إنسان ضد فيلم مبنى على أساس تعليمى ثم يوزع على جميع الوكلاء فى البلاد لعرضه على المزارعين .. ولكن إعداد فيلم يخاطب الناس ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، ويرشدهم كيف يتصرفون وكيف يكون سلوكهم أو ما ينبغى عليهم أن يأخذوا به ويعتقدون فيه أوكيف يدلون بأصواتهم – فهذا هو نوع الأفلام الذى ينبغى على الوكالات الحكومية أن تتجنب إعداده . وهذه هى المجالات بالذات التى تحاول الأفلام التسجيلية الوصول إليها وتناولها . إن الفيلم التسجيلى يهتم بالطبيعة البشرية واحتياجات الإنسان ، وقد يميل إلى نوع من التغيير . ولكن يصعب فى الحكومة الإبقاء عليها فى منأى عن السياسة ، أى أن يكون إنتاج الفيلم التسجيلى الذى يجرى إعداده تحت إشرافها غير سياسى .

وبعد أن انتهى بير لورنتز من إعداد فيلم « النهر » ، عمد الرئيس روزفلت إلى إنشاء هيئة للفيلم الأمريكى وشجعه على أن يتناول موضوعات أخرى من شأنها تشجيع الشعب الأمريكى على التفكير فى احتياجاته ومصيره . وقد أعد لورنتز فيلما عن رعاية الأمومة فى منطقة شيكاغو بعنوان « الكفاح من أجل الحياة » واستدعى روبرت

فلاهرتى ، رائد الأفلام التسجيلية الذى أخرج الفيلم التسجيلى « نانوك الشمال » لإعداد دراسة عن الفقر الزراعى بعنوان « الأرض » ، واستأجر جوريس أيفنز ، مخرج الأفلام التسجيلية الهولندى لإعداد فيلم عن برنامج الحكومة الخاص بمنح القروض لكهربة الريف بعنوان « القوى والأرض » ، ولكن كانت هناك اعتراضات متزايدة فى الكونجرس على هذه الموضوعات . وحدث نتيجة لذلك أن ألغيت هيئة الفيلم الأمريكى نهائيًا فى عام ١٩٤٠ .

على أن ثمة نتيجة غريبة لهذا الشعور السياسى قد تحققت أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها .. فقد بدأ مكتب الاستعلامات الحربى فى عام ١٩٤٢ فى إعداد أفلام تبين كيف يمكن أن يساهم الأمريكيون فى المجهود الحربى ، ولكن الكونجرس اتخذ قراراً يحظر على وكالة أفلام من هذا القبيل أن تجرى « دعاية » محلية ، وقررت وزارة الخزانة أن تستأجر « وولت ديزنى » لإعداد أفلام لتشجيع الناس على دفع الضرائب المستحقة عليهم . وواصل مكتب الاستعلامات الحربى إعداد أفلام عن الولايات المتحدة لعرضها فى أوروبا وأمريكا اللاتينية . واستأجر الجيش والأسطول مخرجين مشهورين من هوليوود مثل – وليم وايلر وجون هوستون وجورج ستيفنز وفرانك كابرا – لإبراز أهدافنا الحربية لرجال القوات المسلحة .. وكانت هذه الأفلام أحيانًا تعرض على الجمهور . على أن الكونجرس لم يرد لأى مكتب أفلام مركزى تكون له رسائل مباشرة وجهته للشعب الأمريكى فى أرض الوطن ، لأن ذلك يبدو شديد الشبه بأسلوب ألمانيا النازية وروسيا الستالينية .

إن الأفلام التى أنتجتها وكالة الاستعلامات الأمريكية غير مسموح عرضها حتى يومنا هذا فى الولايات المتحدة ، وقد يبدو ذلك غريبًا لأنه يعد بمثابة نوع من الرقابة ، ولكن ثمة تاريخًا وراء ذلك كما سبق أن بينت ، والتعليل هو من ميزة النظام السياسى الأمريكى .. أنه ليس هناك بأس أن تتولى وكالة الاستعلامات الأمريكية إنتاج أفلام

قوية تشيد بالنظام السياسى الأمريكى وتَشرح طريقة حياتنا للعالم . ولكننا لا نريد أن يستغل رئيس أمريكى هذه الأفلام لتأييد حملته لإعادة انتخابه .. فإذا كان لابد من إنتاج أفلام من هذا القبيل ، فليتول حزب الرئيس السياسى إنتاجها أثناء الحملة الانتخابية ، لأنه يجب ألا تعد هذه الأفلام على حساب دافع الضرائب .

إن بعض المستمعين لصوت أمريكا الآن قديكونون شاهدوا فيلمًا عنوانه « الزحف » الذى أنتجه قسم الصور المتحركة بوكالة الاستعلامات الأمريكية فى عام ١٩٦٣ ، يعتبر هذا الفيلم مثلاً آخر لاستعداد الحكومة الأمريكية للسماح بالنقد الذاتى فى الفيلم . وكان الفيلم سجلا لزحف المواطنين السود والبيض على واشنطن والاجتماع العام الذى انعقد فى قاعة لينكولن التذكارية احتجاجًا على حرمان الزنوج من بعض الحقوق . ويعتبر هذا الفيلم علامة عظيمة فى صناعة الأفلام الحكومية فى هذا البلد . وقد تعرضت وكالة الاستعلام الأمريكية بطبيعة الحال إلى نقد شديد فى ذلك الوقت لسماحها بعرض مثل هذا الفيلم فيما وراء البحار لأنه أظهرنا فى صورة سيئة ، ولكن إدوارد .. و. مارو ، رائد الأفلام الإخبارية التليفزيونية والأفلام التسجيلية الذى أصبح رئيساً لوكالة الاستعلامات الأمريكية أثناء رئاسة جون ف . كيندى ، صرح بأنه يجب أن نشعر بالفخر لعرض هذا الفيلم . إن حرية الاجتماع والتجمهر تعتبر من الحقوق العظيمة التى ضمنها الدستور الأمريكى ، وكانت تلك لحظة من اللحظات فى التاريخ التى عرف العالم كله فيها أن هذا الحق يمارس . ولا ريب أن من الأفضل ذكر الحقائق ، وقد أظهر هذا الفيلم كيف أن أمريكا مازالت فى مرحلة التكوين وأنها مازالت تتجه قُدُماً نحو أهداف حياة ديموقراطية .

وثمة أفلام أنتجتها وكالة الاستعلامات فى السنوات الأخيرة تستحق الذكر فى معرض الحديث عن الأفلام التسجيلية كشكل فنى .. كان جيمس بلو ، الشاب المسئول عن إعداد فيلم « الزحف » قد سبق أن اتجه إلى أمريكا الجنوبية لمراقبة برامج

المعونة الأمريكية فى كولومبيا . وقد أعد تقريرًا عاما موجزًا على فيلم عن ذلك البلد مع دراسة عن الخدمات الصحية التى قدمها برنامج كيندى المعروف باسم « الحلف من أجل التقدم » . ولكن أروع أفلامه التسجيلية القصيرة فيلم عنوان « المدرسة فى قرية رينكون سانتو » ، ولم تكن فى هذه القرية قبل ذلك مدرسة على الإطلاق ، وكانت الولايات المتحدة قد قدمت المال لشراء مواد البناء وتولى أهالى القرية عملية البناء .

لقد وصل جيم بلو إلى القرية متأخرًا لتصوير عملية بناء المدرسة ولكنه كان حكيمًا فى قراره بعدم إعادة تمثيل عملية البناء ، وبدلاً من ذلك ، أرانا القرية والناس والأطفال وأخيرًا اليوم الأول لافتتاح المدرسة وظهور المدرس وهو ينادى على الأطفال ويحدد لهم مقاعدهم فى الوقت الذى كان أولياء أمورهم ينظرون إليهم بفخر من النوافذ . وأخيرًا أرانا فى لقطة طويلة للمدرسة فى الوادى وصوت الأطفال يترامى إلى المسامع وهم يرددون بصوت واحد مثل الكورس أحرف الأبجدية فى أول درس لهم فى أول يوم فى حياتهم المدرسية ، أى فخر هذا الذى يشعر به الأمريكيون حينما يرون أن معونتهم الخارجية فى فترة ما بعد الحرب قد آتت ثمارها فى هذا المكان الصغير حيث كانت الأبجدية تدرس لأطفال قرية رينكون سانتو .

كم كنت أتمنى لو أن هذا الفيلم الذى يستغرق عرضه عشر دقائق عرض على الشعب الأمريكى فى الوقت الذى أعد فيه عام ١٩٦٣ ، لأنه ما كان يمكن أن يكون تقريرًا نافعًا على طريق إنفاقنا أموالنا فحسب ، وإنما كان سيذكرنا أيضاً بأن قلوبنا قد شاركت فى هذه المنح ، وكان يمكن أن يبين أن منحًا من هذا القبيل أعظم من المدافع والطائرات .

ومع أن وكالة الاستعلامات الأمريكية لا تستطيع عرض أفلامها فى هذه البلاد ، إلا أن هناك أفلامًا حكومية أخرى كثيرة يجرى إنتاجها للمشاهدين المحليين . وهناك بعض هذه الأفلام ما هو موضع جدل – وهى أكثر من كونها تقارير علمية للمزارعين

أو إرشادات مساعدة عن منافع الضمان الاجتماعى . ومن ناحية أخرى أنتجت وزارة الدفاع الأمريكية التى لها ماض طويل فى الإعلام العام الذى اكتسبته أثناء الحربين العالميتين ، وقد شرحت الوزارة فى هذه الأفلام مهمة القوات العسكرية . ولقد أعدت ألوف الأفلام فى فيتنام ، وكان بعضها بمثابة لقطات إخبارية صغيرة لنشرات الأخبار التليفزيونية وكان بعضها الآخر بمثابة نداءات للتأييد الشعبى . وقد استخدم أحد هذه الأفلام وعنوانه « لماذا فيتنام ؟ » على نطاق واسع أثناء إدارة الرئيس ليندون جونسون دفاعًا عن الالتزام الأمريكى إزاء ذلك البلد . وعرض هذا الفيلم على جماعات كثيرة بخلاف السينما بما فى ذلك وحدات ضباط الاحتياط الجامعيين . ولكن جرى أخيراً سحب هذا الفيلم ووقف توزيعه .

ومن جانب آخر كان لدى « مكتب الفرص الاقتصادية » وحدة أفلام نشطة لسنين عديدة للتوعية بالحرب ضد الفقر ودعمٍ لها . وقد أنشئت أثناء إدارة جونسون « هيئة وظيفية » على غرار فرق السلام فى محاولة للوصول إلى العاطلين عن العمل والمحرومين ، بواسطة برامج تعليمية وإرشادية . وكانت هناك أيضاً وحدة خاصة لإسداء النصائح القانونية للفقراء وشرح الوسائل التى يمكنهم بواسطتها الحصول على معونة حكومية إذا كانوا بحاجة إليها .

وقد اجتذب مكتب الفرص الاقتصادية عددًا كبيراً من الشباب تمامًا مثل فرق السلام ، وقد أعد المكتب ، قبل فرق السلام أيضاً ، أفلامًا ممتازة سنويا ولمدة خمس سنين ، وقد رشح أحد هذه الأفلام لجائزة الأكاديمية كأحسن فيلم تسجيلى . وكان آخر الأفلام التى رشحت للحصول على هذه الجائزة فيلم بعنوان « قبل أن يتم نقل الجبل » وكان موضوعه يشبه إلى حد كبير موضوع فيلم « النهر » .. وكان الفيلم يتناول استخراج الفحم من المناجم فى غرب فرجينيا بطريقة تقوم على أساس إزالة قمة الجبل وتركها للانسياب إلى بطن الوادى حينما تهطل الأمطار . وقد أعاد الفيلم تمثيل احتجاجات

الناس الذين كانوا يعيشون فى الوادى ويظهر الفيلم كيف جرى انتقال احتجاج هؤلاء الناس إلى الهيئة التشريعية بالولاية ويعرض كيف انغمرت منازلهم وسياراتهم وحتى ماشيتهم بالطمى فى موسم الأمطار. وقد استمعت الهيئة التشريعية إلى شكاواهم ونداءاتهم وأقرت قانونًا يمنع هذه الطريقة لاستخراج الفحم.

وترى حكومة الديموقراطيين أنه لابد من أن تأتى أفكار جديدة من الناس وصقلها بواسطة الجهاز الحكومى. وهكذا، فإن الفيلم التسجيلى قد يلعب دورًا جديدًا فى الحياة الديموقراطية. ولقد أوضح مجلس الفيلم القومى الكندى الطريقة لتحقيق ذلك. وكان لدى مكتب الفرص الاقتصادية مشروع مماثل فى أمريكا لفترة وجيزة، وهذا الشىء الجديد يدعى « فيلم المجتمع ». وهو يعكس النمط القديم للأفلام التسجيلية.

كان الفيلم التسجيلى القديم يستهدف وصف تجارب المجتمع – وهو وصف أو تمثيل يمكن نقله إلى مجتمعات أخرى كمثل يحتذى به وإلهام: كان الفيلم على سبيل المثال يعبر عن بناء كوبرى أو مدرسة ثم يصبح هذا الفيلم طرازاً لاقتراحات لبلدان أخرى قد تكون بحاجة إلى تطوير العمل التعاونى لبناء مدارس أو كبارى، أما فيلم المجتمع فهو شىء آخر، إنه يستهدف إقامة وسيلة جديدة للاتصال وذلك بمطالبة الناس أنفسهم بأن يتولوا الكلام، ويصبح الفيلم أداة لحوار مباشر بين مجموعات داخل المجتمع، وبديلاً للتوتر الذى ينجم عن المواجهة. وهو يوحى بأن الاتصال، مثل الحكومة، يمكن أن يقوم به الناس، ومن الناس وإليهم.

إن هذا الأسلوب بسيط للغاية، فهو يعتبر نوعًا جديدًا من الاختفاء الذاتى للمصورين والمحررين والمخرجين، ويجرى تصوير الرجال والنساء الذين يمثلون وجهات النظر المختلفة أثناء إعرابهم عن آرائهم ومشاعرهم إزاء المشاكل الراهنة فى المدن والبلدان وعن حياتهم الخاصة وعملهم. ولكل واحد منهم الحق فى أن يشاهد الفيلم ويجرى التعديلات التى يرغب فيها قبل عرضه على الناس. ثم يبدأ التفاعل الفيلمى: وهو أن

العامل يرى فيلم العمدة والعمدة يرى فيلم العامل . وقد أجريت فى جزيرة فوجو فى كندا أحاديث مع تجار ومدرسين وصيادين ووزراء فرادى وجماعات . وتشرح جوليان بيجز ، رئيسة مجلس الفيلم القومى الكندى التى أشرفت على المشروع ، هذه العملية فتقول :

> إنك إذا اصطحبت الصيادين إلى مقر مجلس الوزراء ، فإنهم لن يتكلموا عن مشاكل حياتهم بنفس الطريقة التى يتكلمون عنها بين بعضهم البعض . ولكن إذا أتحت لرجال الحكومة الفرصة لمشاهدة أفلام للصيادين وهم يتحدثون فيما بينهم ، فإن الرسالة الحقيقية تتحقق ، أى أن المشاكل التى يعانى منها الصيادون تطرح أمام ممثلى الحكومة .
>
> ولو أنك أتحت للصيادين بدورهم الفرصة لمشاهدة أفلام عن رجال الحكومة وهم يبحثون المشاكل نفسها ، فإنك ستكون بذلك قد أقمت اتصالاً جديدًا مع كل مجموعة فى محيطها الخاص .

عندما يحدث هذا الاتصال الجديد ، فإنه يختلف اختلافا تاما عن مجرد مشاهدة مشكلة ثم مشاهدة حلها . إن ما يجرى هو مشاركة حقيقية تتطور إلى تعارف متزايد بين الجانبين ، ثم التعرف إلى الإطار السياسى والاجتماعى . وهو يتيح مجالاً للتفاهم ضد العنف وعدم الثقة لأنه ، وهو يتجاوز حدود حدوث ارتباك نتيجة لمواجهة حقيقية بين الجانبين ، لأن الذى يجرى الحديث والفيلم قد تدخلا بين المشتركين لتشجيع التعبير الشخصى بدون مقاطعة .

وليس ثمة شك فى أن الأفلام فى العمل الجماعى هى مجرد خطوة واحدة فى العملية الديموقراطية – وأن هذه العملية لا يمكن أن تكون طيبة إلا بقدر طيبة الناس الذين يشتركون فيها – إن بعض المتحدثين يتسمون دائمًا بالخداع ومن ثم فإنهم يكونون أكثر

انهزامية من الآخرين . وقد يكون الإسراف فى الاتصال انهزاميًّا .. ذلك لأن الإفراط فى الكلام يؤدى إلى التوتر وكشف الخصوم ومعرفة حقيقتهم . إن قوة أثر أى حوار مباشر مرهونة بتوافر الأمانة والدبلوماسية – واستعداد للحديث بحرية والتوقف عن الحديث فى الوقت المناسب . ثم هناك مسألة عملية صنع الأفلام ، فالفن الخاص بإخراج فيلم اجتماعى ليس كعمل فنى لتسجيل شىء على فيلم ، فهو ليس عمل عشوائى وإنما يقوم على أساس معرفة بالطبيعة البشرية والمجتمع . وينبغى على المخرج أن يعرف كيف يختار الموضوعات وأن يلم إلمامًا تاما بمعنى وقيمة كل حركة ومعنى . إن العثور على مخرجين مصورين من هذا القبيل أمر صعب .

إن مثل هذه الأفلام لا ينبغى أن تكون باهظة التكاليف ، فظهور وسائل التسجيل والتصوير بالفيديو وكذلك الأفلام السوبر مقاس ٨ ملليمترات (مع الصوت) ، تجعل ثمن المواد معقولة . وإلى جانب ذلك يمكن تدريب عمال التصوير والمحررين المحليين على أساس ميزانية يستطيع أى مجتمع صغير أن يتحملها .

أيمكن تنفيذ هذا النوع من العمل وإن كان ذلك على المستوى القومى ؟ إنه فى هذا اليوم الذى اتسع فيه نطاق العلاقات العامة والتصوير السياسى على التليفزيون ، هل يمكن إجراء حوار بمجرد إحضار الناس أمام الكاميرا ؟ ألسنا نذكر أن رئيسًا للجمهورية اختار أن يشاهد مباراة كرة قدم على شاشة التليفزيون على أن يستمع إلى احتجاج ضد الحرب ؟

إن ما نطالب به أساسًا هو ما إذا كانت الديموقراطية تستطيع استبقاء أى قسط من استقامتها وأمانتها فى هذا العصر التكنولوجى ، وليس ثمة شك فى أن الجواب لا يمكن أن يكون مقصوراً على التكنولوجيا نفسها ، وإنما على البواعث والجهود الحثيثة من جانب هؤلاء الذين يعنون بعملية الديموقراطية .

والطريقة الوحيدة التى نجحت فيها الديموقراطية هى تعبئة الاهتمام المتبادل بسعادة

الآخرين ، وهى عملية خلاقة مبدعة ، وهى تجديد لمشاعر التعاطف مع الآخرين ، ومن ثم فإنها تلقى عبئًا ثقيلاً على عاتق الفنانين فى أى عصر من العصور . إن الفيلم التسجيلى يستطيع أن يقوم بهذا النوع من العمل ، ومن ثم فإن له مكانًا طبيعيًا فى قلب الاتصالات العامة فى مجتمع ديموقراطى .

obeikandl.com